1

ضوء ساطع في الظلام

تايلاند

كان عمـر شان تسع سنـوات عندما باعته أمه مع شقيقته إلى صاحب أحد المصانـع في بلدة مامي سـاي في أقصى شمال تايلاند. تقـع هذه البلدة قرب الحـدود مع بورما، وتضم سوقًا سـوداء للبضائع المهربة على مختلف أصنافها. مقابل ذلك، حصلت الأم على أربعين دولارًا ثمنًا للطفلين.

انضم شـان وشقيقته بعد بيعهمـا إلى ثمانية أطفـال آخرين في المصنع لتقشير أكوام الثّوم. كان الأطفال يعملون في غرفة كبيرة، ملتصقة بمكتب صغير يجلس فيه صاحب المصنـع، ويراقب العمال الصغار من خلال نافذة زجاجية. لم يكن الأطفال يتلقون أي أجر لقاء العمل الذي يقومون به. أما الطعام المقدم لهـم فكان لا يسمن ولا يغني من جوع. كانـوا يعملون لساعات طويلة، ويتعرضون إلى أقسى صنوف العقاب إنْ لم يقشّروا الكميات التي يحدّدها لهم.

كان الأطفـال ينامون لساعات قليلة في شقة مجاورة، إلى أن يأتي صاحب المصنـع لإيقاظهم ونقلهم فـي شاحنة إلى المصنع. ولم يعرفـوا أي عالم آخر سـوى المصنع، والشاحنة التي تقلهـم، وتلك الشقة في الطابق الثاني. لا أحلام لهم كغيرهم من الأطفال؛ فعائلاتهم باعتهم ليصبحوا عبيدًا.

وصفة للضعف الجماعي

وضعـت وزارة الخارجيـة الأمريكية تايلاند في الترتيـب الثاني في تقرير الاتّجـار بالبشر لعام 2009، مستندة إلى تفشّي هذه الآفة في المناطق الحضرية

والريفيــة على حد سواء. وجاء في التقرير: تعــدُّ تايلاند مصدرًا، ونقطة عبور، ومحطة استقبال للمُهرَّبين من الرجال والنساء والأطفال لغايات العمل القسري، والمتاجرة بالجنس[1].

وهنــاك دراسات إضافيــة، بما في ذلك الاستطلاع الــذي نشرته صحيفة تايــم آشيــا، تؤكد فيه انتشار الــرق في تايلاند. ويقول استطــلاع الصحيفة: إن هــذا الاتّجار القذر ينتشر في أنحاء آسيا كلّها تقريبًا. ولكن تايلاند والهند على وجــه الخصوص هما منبع تجارة اللحم البشــري؛ حيث يجري تصدير الأطفال والبالغين واستيرادهم على نطاق واسع[2].

وإذا كان الحــال كذلك، فما سبــب تفشّي العبودية في تايلاند وكذلك دول جنــوب شرق آسيــا جميعها؟ في الحقيقــة أن هناك أربعة عوامــل تعمل معًا من أجل تمزيق المجتمعات في تلك المنطقة، وهي: (1) حركة التصنيع المتسارعة (2) الفقــر المدقع (3) الصراعات المسلحة (4) الانفجــار السكاني. ومع أنه يصعــب أن يتوصل رجال الاقتصــاد والسياسة إلى اتفاق حــول أيّ هذه العوامل يعــدّ محوريًّا فــي انتشار العبودية، إلا أنهم متفقون علــى أن منطقة جنوب شرق آسيــا تمرّ بمرحلة انتقالية، وكلما تعرض أي وضع اجتماعي إلى تغيرات ما، فإن البؤساء هم الأكثر معاناة.

في السنــوات الأخيرة، حققت منطقة جنوب شرق آسيا قفزات مذهلة في مجــال التصنيع، بعدما تحوّلت قاعدة المنطقة الإنتاجية من زراعة الكفاف إلى التصنيــع والزراعة التجارية (مع وجود فروق بيــن دولة وأخرى). ولذلك، وجد صغــار المزارعين صعوبة في تأميــن لقمة عيشهم من زراعة الأرض، فاضطروا إلى الهجرة صوب المدن بحثًا عن عمل يقتاتون منه.

obeikandl.com

ومـع أن التصنيع يحمل معه إمكانية تحفيـز نمو الاقتصاد الوطني، إلا أن هذه البلدان تعاني من سوء توزيع الثروة؛ إذ إن مجموعات النخبة تحتكر امتلاك الأراضي ورأس المال، وتشرف على الترتيبات المالية التي لا تأخذ في الحسبان احتياجـات الجماهير الجائعة. ولا شك فـي أن دارسي التاريخ يتذكرون الفروق الاجتماعية التي رافقت عملية التصنيع في العالم الغربي. ومع أنه كان من المؤمل أن التصنيـع في منطقة جنوب شرق آسيا سـوف يحمل معه الرخاء الاقتصادي لغالبية المواطنين، إلا أن الفقراء يُتقاذفون كبقايا سفينة محطمة في بحر متلاطم الأمواج.

فعلـى سبيـل المثال، تقـول دينـا دودزر: إن الأزمـة الماليـة العالمية في عـام 2008/ 9 أدت إلـى زيادة إغـلاق المصانع، وارتفاع معـدلات البطالة بين التايلنديين[3]. ونسبـت إلى أحد موظفي وكالة إغاثة في بانكوك العاصمة قوله: كان على الوالدين والأطفال أن يكافحوا من أجل البقاء.

كما أن هذه القوى الاقتصادية قد ضربت كمبوديا بشدة؛ حيث يعيش شخص واحد علـى الأقل من بين كل ثلاثة أشخاص تحت خط الفقر. ومما يزيد الوضع سوءًا هو أن النساء الكمبوديات لا يحظين بفرصة الالتحاق بالتعليم المنتظم، ولا تعلّم مهارات حرفية. وعليه، فإن تفشّي الأمية بين النساء أعلى مما هي عليه بين الرجال إلى حد كبير[4]. ومع أن فرصة العثور على وظيفة في كمبوديا أو تايلاند نـادرة، إلا أنهـا أكثر صعوبة بالنسبة إلى النسـاء؛ فأصحاب الشركات يرفضون توظيف النساء الأميات والفقيرات.

لقد شهدت منطقة جنوب شرق آسيا ما يكفي من النزاعات المسلحة طوال خمسين سنة الماضية، مما سبب المزيد من عدم الاستقرار الاجتماعي. وتقول الدكتورة سيريرات بوسورنهام الناشطة في المجال الاجتماعي ورعاية الأيتام[5]: إن الاحتقان الاجتماعي الذي سببته الحرب العالمية الثانية كان التربة الخصبة

لانتشـار ظاهرة البغاء الخاص بالسيـاح الأجانب، مما دفع إلى إنشاء أول مركز للترفيه الجنسي في تايلاند. وقد انتعشت السياحة الجنسية هذه سريعًا وتوسعت، حاملة معها أبشع أشكال الاستغلال الجنسي لأغراض تجارية.

وبالمثـل، سببت حرب فيتنام صدمة للشعـب الفيتنامي، وامتد أثرها إلى شعـب لاوس، وكمبوديـا وتايلاند. وفي مثل هذا النزاعـات، لا يكون المتنازعون الضحايا الوحيدين للحرب، بل والمدنيين أيضًا. إنّ مثل هذه المجتمعات تحتاج إلـى سنوات طويلة للشفاء من جراحاتها، حيـث لا تزال قبائل كثيرة مشردة في مرتفعـات لاوس، مثلا، ولـم تستقر حتـى الآن. ولا يزال الوضع فـي بورما – أو جمهوريـة اتحاد ميانمار – أكبر شاهـد على آثار الحرب المدمرة بعيدة المدى، حيث تحاول الحكومة فرض سيطرتها على القبائل وأمراء الحرب الذين يسعون إلى الاستقلال بمناطقهم. ويمكن للصراعات المسلحة أن تنشب في أي لحظة. فقد ذكر تقرير لجنة الأمم المتحدة لشؤون اللاجئين لعام 2009، أن المجموعات المسلحة البورمية كانت تجبر الأطفال من عمر عشر سنوات على العمل كحمّالين ومقاتلين في منطقة كارين على حدود تايلاند الشمالية[6].

ومما زاد الطين بلّة الانفجار السكاني في المنطقة، والذي فاقم من صعوبة الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية. وتشير الإحصائيات الرسمية إلى أن أكثر من نصف عدد السكان في كثير من دول جنوب شرق آسيا هم من الأطفال تحت سن 15 عامًـا. وبسبب معاناتها من شحّ الغذاء، وندرة فرص العمل، فإن المجتمعات المحليـة لا تملك المـوارد الكافية لإعالة شبابها. والحقيقـة المرة هي أن هؤلاء الشباب هم أول من يُضحّى بهم. وفي خضم هذا الانحلال الاجتماعي كلّه، تبرز العبوديـة كحلّ مالي مغرٍ. وفي الأغلب مـا تستهدف التجارة بالبشر الأطفال في القـرى الريفية النائية. ويستطيع مالك ماخور في جنوب شرق آسيا شراء امرأة أو طفل بثمن بخس؛ لا يزيد على عشرين دولارًا. أما سعر الفتاة العذراء فيتراوح

بيـن 500 — 1000 دولار. ويعدّ هذا مبلغا كبيرا بمقاييس تلك الدول، خاصة إذا عرفنا أن الألف دولار يعادل معدل الدخل السنوي للفرد في كمبوديا بثلاث مرات ونصف[7]. ولذلك، فإن بيع العائلة لابنتها أو (بدرجة أقل) لابنها في حالات العوز الشديد أمر لا يدعو إلى الدهشة. في الماضي، درجت العائلات الفقيرة على بيع أطفالها للأثرياء خدما في منازلهم أو عمالا في الحقول الزراعية. أما في الفترة الأخيرة، فقد رفعت تجارة الجنس الطلب على الأطفال العبيد؛ والطبقات الفقيرة توفر العرض لذاك الطلب. وفي كل الأحوال، لا تتوافر إحصائيات دقيقة عن عدد أولياء الأمور الذين يبيعون أطفالهم لتجار الرقيق. لكن مقالة نُشرت في مجلة يو. إن. كرونيكل *UN Chronicle* في عام 2003 أشارت بوضوح إلى تورّط أفراد العائلة في هذه الصفقات، ومما جاء فيها: غالبًا ما يستخدم التجار السكان المحليين في تجمـع أو قرية ما للبحث عن أطفال وفتيات صغيرات. وهم يستهدفون العائلات الفقيرة. وفي بعض الحالات، يبيع أفراد العائلة الأطفال إلى الوسطاء أو التجار[8].

وقد كشفت إحدى الدراسات أن 35% تقريبا من العائلات الفيتنامية التي تعيش في كمبوديـا تبيع بناتها في سـوق البغاء، وأن ما بيـن 25% — 35% من العائـلات الأخـرى تفكر جديًّا في هذا الخيـار، ولكنها لا تكمـل عملية البيع[9]. ويعيش الفيتناميون أقلية مُهمّشـة في كمبوديا. ولهذا، علينـا أن نحذر التعميم بنـاء على هـذه النسب المئوية. ومع ذلك، فإن الأرقـام تعكس اتساع ظاهرة بيع البنات وقبولها ثقافيًّا.

ولكـن السؤال هـو: لِمَ يبيع الأب طفله أو طفلتـه؟ معظمنا، لا يجد مسوّغا للإقـدام على هذه الخطـوة تحت أي ظرف من الظروف أبدا. (ومع ذلك، علينا التوقـف هنا وتذكّر أن مجموعات مناهضة الاتّجار بالبشر في الولايات المتحدة قد وثّقت حالات لعائلات أمريكية باعت أطفالها عبيدًا. انظر موقع www.Slav–erylhop.org لمعرفة مدى انتشار الاتّجار بالبشر داخل الولايات المتحدة).

وفي هذا السيـاق، علينا أن نتذكر بأن البيئة الثقافية والدينية في تايلاند تضع المرأة في مكانة اجتماعية متدنية. فالتقاليد الدينية البوذية تشجع معاملة المـرأة كمواطن من الدرجـة الثانية. بل إن البوذيـة (تيراهفادا) Theravada فـي تايلاند ترى أنّ المرأة لا تستطيـع الوصول إلى المستويات العليا من التنوير الروحي Spiritual Enlightenment، وأن أفضل شيء يمكن أن يطمحن إليه في هـذه الحياة الدنيا هو أن يقمن بمزيد مـن الأعمال الصالحة حتى يولدن ذكورًا في حياتهن الأخرى.

أيضًا، تعاني تايلاند من تمييز ثقافي كبير يساعد تجار الرقيق على اقتناص الأطفال من مجموعات سكان البلاد الأصليين في المناطق الريفية، وزجهم في مواخير الجنس في بانكوك، وفوكيت، وشيانغ ماي[10].

وفي الحقيقة أن اللاجئين في أنحاء العالم بأسره يواجهون مصيرًا مجهولا محفوفًـا بالمخاطر؛ إذ يصبحون أقلية في مجتمع جديد، دون أي صفة شرعية، إضافة إلى تعرضهم للاستغلال من لدن الأشخاص المتنفذين. فعلى سبيل المثال، يرى تجار الرّقيق التايلنديون التجمعات البورمية بركة عميقة لصيدهم[11].

كرو نام؛ رسامة تحولت إلى مناهضة للرّقّ

ربما يكون من المستبعد جدًّا أن يتحول فنان يحمل شهادة جامعية في الفنون الجميلـة إلى منقذ أطفال. لكن الحال يختلـف بالنسبة إلى كرو نام التي ترابط على الخطوط الأمامية لجبهة مناهضة العبودية في تايلاند.

في بداية الأمر، لم تكن على علم بما يدور حولها. ولكنها اكتشفت فجأة أنها لا تستطيـع تحمل رؤية أطفال الشوارع الذيـن يعيشون على جوانب قنوات المياه التي تحيط بمدينة شيانغ ماي، أكبر مدن شمال تايلاند. وفي أحد الأيام، حملت

أدوات الرسـم من قماش وألوان وفُرَش، وذهبت إلـى حافة النهر للاستماع إلى حكايات أولئك الأطفال، وحولتها إلى لوحات تروي قصصًا رهيبة.

اكتشفت كرو نـام أن معظم الأطفال ليسوا من تايلاند، وأن كثيرين منهم جـاؤوا من بورما، ولاوس، وفيتنام، وكمبوديـا. روى لها الأطفـال رحلتهم حتى وصولهـم إلى شوارع مدينة شيانغ ماس. أخبرهـا الأطفال البورميون عن زيارة رجـل تايلندي أنيق قريتهم، وكان يصحبه طفل حسن الهندام عمره أربعة عشر عامًا، ويتحدث اللغة التايلاندية بطلاقة. قال الرجل لآباء هؤلاء الأطفال إنه يقدم منحًـا دراسية للأولاد الصغار، والالتحاق بمدرسـة راقية في تايلاند. وذكر أنه سـوف يتحمل تكاليف دراستهم ومعيشتهـم، ثم قال، مشيرًا إلى الطفل البورمي الـذي يرافقه: انظروا إلى هذا الطفل من بنـي جلدتكم كيف أصبح على أحسن حال! وإذا ما سمحتـم لأطفالكم بمرافقتي إلى مدينة شيانغ ماي، فسوف أعمل لهم ما عملته له.

وبالرغـم من أن مواطنـي بورما القبليين يترددون كثيـرًا في جعل بناتهم يفارقنهـم، إلا أنهم يتساهلون في السماح للأولاد بالسفر بحثًا عن لقمة العيش. وهكذا، وافقت بعض العائلات على السماح لأبنائها بالذهاب مع الزّائر التايلاندي. وعندمـا وصلوا إلـى شيانغ ماي، باعهم ذلك التّاجر فـورًا إلى أصحاب مواخير الجنس.

وقـال الأطفال الذين عاشوا على طـول امتداد حافة النهر، إنهم كانوا من الأطفال المحظوظين لأنهم تمكنوا من الهرب، في حين ظل كثير من أصدقائهم سجناء في بيوت الدّعارة تلك. شعرت كرو نام بالدم يفور في عروقها وهي تستمع إلـى حكايات هؤلاء الأطفال، فقررت ألّا تظل غير مبالية ولا متفرجة، وأن عليها فعـل شيء ما. لم يكن لدى كـرو نام أي خطة محددة عندمـا اقتحمت أول بؤرة جنس تصادفها في تلك الليلة. ولم تحاول حتى مساومة مالك الحانة، مفترضة

أن ذلك سيكون مضيعة للوقت. لقد كانت مهمتها واضحة؛ إنقاذ أكبر عدد ممكن مـن الأطفال. رأت في الماخور الأول الذي دخلتـه أطفالا يجلسون حول طاولات يرفّهون عن الزبائن الذكور. أخذت تقترب من كل طاولة، وتهمس في أذن الطفل بهدوء: هيا بنا نهرب. ولم تمض سوى دقائق قليلة حتى كانت تقود ستة من أولئك الأطفال الصغار عبر الباب، وتأخذهم إلى مخبئها.

وبالرغم من أنها قامت بعدة غارات مرتجلة أخرى على بيوت الدّعارة، إلا أنهـا قـررت أن تعمل بحذر بعد أن تلقت تهديدًا بالقتل من أصحاب تلك البيوت؛ إنها تسرق ممتلكاتنا. هكذا اتهموها.

تشان؛ المصير المرّ

لـم يكن تشان يفهم لماذا كان والده يترك البيت كثيرًا، ويعبر الحدود إلى تايلاند. كان يومها صغير السّنّ، ولم يدرك، حينها، أن والده كان يهرِّب المخدرات. كان والـده يغادر في الصباح الباكر ليجتمع مع موردي المخدرات التايلانديين، ثـم يعود أدراجه إلى بورما لتسليم البضاعة للمروجين. ولكونه الوسيط في هذه الصفقـات، فقد كان يحصل على جزء صغير من الأرباح رغم المخاطر الكبيرة التـي يتعرض لهـا؛ لأن النظام في بورما لا يتساهل كثيـرًا مع مهربي المخدرات المستقلين.

وفي إحدى الليالي، انقلبت حياة تشان رأسًا على عقب، عندما اقتحم الجنود البورميـون المنزل وهم ينادون على والده بصوت عالٍ. عندما خرج الأب إليهم، أطلـق الجنود النار عليه من مسافة قريبة، وقتلـوه، في حين تكوّم تشان وعائلته في إحدى زوايا المنزل وهم يصرخون. كان أفراد العائلة ينتظرون توجه فوهات البنـادق صوبهم، لكن الجنود غادروا المـكان وتركوهم في رعبهم مصدومين. استقبلت العائلة العزاء في الأب القتيل مدة ثلاثة أيام. خلالها، كان تشان يشاهد

الجيـران وهم يحضرون معهـم قليلا من الطعام الذي كان أقصى ما استطاعوا توفيـره. وفـي اليوم الثالث، أُحرقـت جثة الوالد في المعبد كمـا تقضي العادات البوذية، وعادت العائلة إلى حضن فقرها وعوزها.

تأكـدت والدة تشـان سريعًا أنها لا تستطيع إعالـة أسرتها، فاضطرت إلى الاستجداء في الشوارع. ولم يمض وقت طويل حتى عثر تاجر للرقيق على فريسته. كان ذلك التاجر يملك مصنعًا لتعليب الثّوم، وعرف أن لدى الأم الأرملة طفلين، دون أي مصـدر دخل منتظم، فأقنعها أن تبيع تشان وشقيقته لينضما إلى عمال السّخرة.

عمالة الأطفال

في تقريرها لعام 2009 حول وضع أطفال العالم، أشارت منظمة الأمم المتحدة للطفولـة – اليونيسف، إلـى أن ما بين 150 مليون طفل في أنحاء العالم من عمر 5 — 14 عامًا يعملون يوميًّا، منهم 45% من أطفال كمبوديا. ومع أن أرقام عمالة الأطفـال أقل إلى حد ما في الدول الأخرى في منطقة جنوب شرق آسيا، إلا أنها تظل مدعاة للقلق. وقد كانت نسبة عمالة الأطفال في دول تلك المنطقة كما يلي: فيتنام 16%، لاوس 11%، تايلاند 8%. ولم يورد التقرير أرقاما خاصة عن بورما نظرًا لصعوبة الحصول على بيانات من ذلك البلد المُغلق على نفسه[12].

وبدورهـا، درجت منظمة العمل الدولية على توثيق عمالة الأطفال وآثارها المدمّـرة. ففي دراستها بعنوان (أعطوا فرصة للبنات؛ معالجة عمالة الأطفال) قدّرت المنظمة أن نحو 100 مليون فتاة حول العالم يعملن في ظروف عمل خطرة تضر بصحتهن ونموهن، وتقلل من فرصهن التعليمية[13]. وجاء في الدراسة أيضا أن تجـارة العمالة غير الشرعيـة ترتبط بالعمل في الزراعة، والخدمة المنزلية،

obeikandl.com

وأعمـال البناء والإنشـاءات، والقطاعات غير المنظمـة. وأن 43% من الأطفال المُهرَّبين إلى سوق أعمال السّخرة يُستغلون في التجارة الجنسية[14].

وباختصـار، فإن الضحايـا من الأطفـال يتعرضون إلى العنـف الشديد، والصدمات النفسية، والأمراض الجنسية مثل نقص المناعة المكتسب؛ الإيدز. وتقتـرح منظمة العمل الدولية عدة حلـول لمعالجة عبودية الأطفال، حيث تقول: إن إحـدى الأولويات المحددة فـي الدراسة هي منع عمالـة الأطفال، من خلال التطبيـق الدقيق للقوانيـن والتنظيمات، ورفع درجة التوعيـة بخصوص العمالة القسرية بالنسبة إلى المجتمع ككل، وقيام الشرطة والسلطات القضائية والسلطات المسؤولة الأخرى بالمهمات الموكولة إليها[15]. ومثل معظم الدول في العالم، فقد أصدرت تايلاند قوانين تحظر تجارة الجنس، والعبودية، وعمالة الأطفال، والزواج القسـري، والاستغـلال الجنسي للأطفال، والحرمان مـن الحرية[16]. وخلاصة القول، فـإن الحل يعتمد على التطبيـق المستمر للقانون، كمـا تقترح المنظمة. وقد ذكر تقرير وزارة الخارجية الأمريكية لعام 2009 بعنوان الاتّجار بالبشر: على الرغم مـن أنّ الحكومة التايلاندية قد أقرت قانونًـا جديدًا، ودربت المسؤولين علـى تنفيذه، إلا أنها نادرًا ما تحاكم المتورطين في الاتّجار بالبشر، ولم يحدث أنها أدانت أحدًا على ارتكاب هذه الجريمة في عام 2008[17].

تشان؛ الهروب المؤلم صوب الحرية

كان تشـان يشعـر بغثيـان من رائحة الثـوم، وبالخـوف الشديد من كلاب الحراسـة الموجودة في المـكان لضمان عدم هروب الأطفـال. كما كان جسمه يحمـل أثار كدمات مـن الضرب المتكرر. ولكـن أكثر شـيء كان يؤلمه هو رؤية أختـه الصغيرة تعاني من المرض والهزال. لقد كان عاجزًا عن مساعدتها وعن مساعدة نفسه.

ومع أن كثيرًا من الأطفال قد حاولوا الهروب من قبل، إلا أن أجسادهم كانت تحمـل آثار عضّات الكلاب دليلا على فشل محاولاتهم. ولكن تشان قرر الهرب، وأخذ يخطط لنجاحه. وفي إحدى الليالي، استجمع كل ما لديه من شجاعة، وانتظر حتى توارت الكلاب وراء المبنى، فقفز من نافذة الدور الثاني إلى الشارع المُعبّد. وبالرغم من الألم الذي كان يسري في جسده من شدة السقوط، إلا أنه كان متيقنًا من أن شقيقته الهزيلة سوف تموت إذا ما قفزت مثله، وأن عليه الابتعاد عن هذا المـكان بأقصى ما تستطيع أن تحتمله ساقاه. واتخذ القرار المؤلم بالتّخلّي عن شقيقته وراءه، وأخذ يعدو في شوارع مدينة ماي ساي.

لـم يفكر تشان مطلقًا بالعودة إلى أمه في بورمـا. واعتقد أنها، مثلما كان يفعل صاحب المصنع، سوف توسعه ضربًا على عصيانه، بل الأسوأ من ذلك هو أنهـا قد تعيده ثانية إلى المصنع الذي هرب منه. لقد كان يشعر بالوحدة والألم والخوف. ومع ذلك، كان مصممًا على البقاء حيًّا.

كرو نام: الصديق وقت الضيق

عرفت كرو نام أن مجرد اقتحام مواخير الجنس، وإنقاذ الأطفال، لا يمثل استراتيجيـة بعيدة المدى، فقد كانت تعرض سلامتها وسلامة الأطفال للخطر. ولذلك، استبدلت طريقتهـا السابقة؛ فشكلت فرقا تجوب شوارع أسواق الظلام في تشيانغ ماي بحثًـا عن الأطفال القادمين بالحافلات من الحدود التايلاندية – البورمية، في الوقت الذي كان فيه عملاء مواخير الجنس يبحثون عن الأطفال الهاربين. وكان السباق مريرًا على من يصل إلى هؤلاء الأطفال أولا.

وتأكـدت كرو نام أنها لو انتقلت إلى موقع متقـدم قبل وصول الأطفال إلى تشيانغ ماي، فسوف تتنصر على تجار الرّقيق. لذا، انتقلت إلى مدينة ماي ساي

الحدوديــة التي تبعد 150 ميلا عن تشيانغ ماي، وأنشأت مركز إيواء استقبل في بداية الأمر 25 طفلا، ثم وسعته بعد ذلك ليستطيع استيعاب نحو 60.

وفــي إحدى الليالي، وعندما كانت تسير في شــوارع المدينة، التقت تشان صدفة وهو يغوص في حاوية قمامة أملا في العثور على فتات يسدّ به رمقه. وغالبًا ما يحتــال أطفال الشوارع على العيش ببيع الأشيــاء القابلة للتدوير التي يعثرون عليهــا فــي مزابل ماي ساي. عندما نظرت كرو نام إلــى تشان، عرفت أنها أمام طفل في مأزق. أخبرها أن عمره 11 عامًا، ولكن جسده لم يكن يفصح عن عمره لأنــه كان مشوهًا من الحــروق الشديدة (طريقة صاحــب المصنع المختارة في التعذيب)، وهزيلا بسبب سوء التغذية.

لقد سبق لتشان أن شاهد كرو نام من قبل عندما كانت تحث الأطفال على الالتحــاق بالأنشطة التي تديرها منظمــة –Volunteers for Children Develop ment Foundation (VCDF) «متطوعون لتطوير الأطفال». ورغم تشرده، إلا أنه كان متحفظًا وهي تتحدث إليه؛ إنه لا يثق بالبالغين. صحيح أنه اشترك في شجارات الشوارع، وقضى يومًا أو يومين دون طعام، أو فقد ذاكرته بسبب استنشاقه الصمغ الصناعي، إلا أنه، رغم كل هذا، كان حرًّا.

وفــي إحدى الليالي، ذهــب تشان إلى مركز الإيــواء. وعندما دخل المبنى المكون من ثلاثة طوابق، سمع الأطفال يتدربون على مهارات اللغة، وشاهد نساء في مجموعات صغيرة يتعلمن الخياطة، وشاهد الكبار والصغار من زوار المركز يشاركون في الرسم والتلوين. عندها، شعر أن المركز مكان مريح، وأصبح يتردد عليه بانتظام مستفيدًا من العلاج، ووجبات الطعام، والاستحمام المجاني. ونشأت بينه وبيــن العاملين في المركز علاقة صداقة، وعلّمــوه القراءة والكتابة وبعض الألعــاب. ومع ذلك، فإن الأحلام – أو الكوابيس بالأحرى – لم تتوقف. فبالرغم مــن أنه أصبح قويًّا بدنيًّا وعاطفيًّا، إلا أن صورة شقيقته ظلت أمام ناظريه. كان

يسـأل نفسه دائمًا: هل مـا تزال حية؟ أما تزال سجينة فـي المصنع؟ وفي أحد الأيـام، قـرر أن يبوح بما يعتمل فـي داخله. لكن كرو نام أحسـت بخوفه وتردده فـي كشف معظم تفاصيل ما جرى له. وأخيـرًا، أقنعته بالانتقال إلى مركز إيواء الأطفال الذين يجري إنقاذهم، وحمل اسم «أصدقاء على قارعة الطريق» الذي يقـع في الريف خارج مدينة مـاي ساي. في ذلك المكان، نـام تشان في سريره آمنا لأول مرة منذ سنوات؛ ليس تحت جسر ما، ولا على أرضية بيت سجّان عبيد.

وبعد أن كان تشان منعزلا وخائفا، أصبح ذاك الطفل المرح الذي استطاع تكويـن صداقات مـع أطفال آخرين من أترابه. كلّ ذلك، بعـد انتقاله إلى مركز «أصدقاء على قارعة الطريق». إنها تشان أخيرًا. وأخبر كرو نام بالقصة الكاملة، وبالأيام التي قضاها مُستعبدا في مصنع الثوم. وظل تشان كل ليلة يفكر في شقيقته سجينة بمصنع الثوم، ويتصور كيف ستموت دون أن يهرع أحد لمساعدتها، وكانت الدموع تنساب على وجنتي الطفل الذي لم يجرؤ أن يبكي مطلقا.

آني ديزلبيرغ؛ ضوء في الظلام

لحسن حظ المُستعبَدين في تايلاند، فإن كرو نام ليست المعارض الوحيد للعبودية الذي يقاتل على الخطوط الأمامية. فهناك آني ديزلبيرغ –Annie Die selberg التـي رأت الحريـة هدفًا لحياتها، وأنشأت مشروعًـا في بانكوك يحمل اسـم « نايت لايت » «ضـوء الليل» أنترناشيونـال Night Light International، الـذي يوحي بصورة ضوء ينير ظلام التائهين، ومبشـرا بغد أفضل. وقد امتزج إبداعها الرائع مع عاطفتها الشديدة في إخراج هذا المشروع إلى الوجود. وعندما أطلقت آني مشروعها في عام 2005، كانت تأمل في توفير بدائل للفتيات اللواتي يعملـن في مواخير البغاء التجارية. لقد ظلت تعمـل مع زوجها لعشر سنوات في مساعدة ضحايا تجارة الرق في بانكوك. وبعد أن شاهدت نساءً كثيرات يتعرضن

إلــى استغلال جنسي يحطّ من كرامتهن، أخذت آني تفكر في تغيير هذه الحال. وكانــت أمام خيارين؛ الاستمرار في مساعدة الضحايا المحطمة بعد أن يرميها المستغلــون، أو مواجهة المشكلة وجهًــا لوجه والاصطدام بها. لقد قررت الخيار الصعب.

وقد اعتادت آني سلوك الطريق الأقل ارتيادًا، وهي التي قضت معظم طفولتها في زائير، قبل أن تنتقل عائلتها إلى تايلاند وهي في طور المراهقة. وقد عاشت سنــة واحدة مع عائلتها في تايلاند، ثم التحقت بمدرسة داخلية في الهند. وبعد تخرجهــا فــي المدرسة الثانوية، ظهــرت في جامعة ويســت فرجينيا وهي تلبس الســروال والقميص والخلخال على طريقة نساء شبه القارة الهندية. وتقول آني وهــي تتذكــر تلك الأيام: يومها، لم يعرف الطلاب الآخــرون كيف يصنفون هذه البنــت البيضاء الغريبة ذات الشعر الأحمر التي كانت تلبس وتتصرف كأي فتاة أجنبية تماما. وتضيف ضاحكة: ربما كان شكلي مثل أي فتاة أمريكية عادية، ولكني بالتأكيد أثرت بعض الأفكار غير العادية داخل قاعة المحاضرات.

وإلى هذا اليوم، فإن مظهرها يبدو مخادعًا؛ حيث ما تزال قامتها منتصبة، وبنيتها قوية رغم تخطيها سن الأربعين وإنجابها أربعة أطفال. إنها تتميز بعاطفة متقدة، وتتحدث وتتصرف بحماس الأنبياء وصدقهم. وعن تجارة الجنس تقول: قد تبدو لك المرأة كما لو أنها حرة وأنت تجوب شوارع بانكوك، ولكنها ليست كذلك. غالبًا ما يجري نقل هؤلاء النساء المُهرَّبات من مكان إلى آخر، وكثيرات منهن لا يعرفن اللغة ولا العملة النقدية التي تتعامل بها تلك البلاد. إنهن يشعرن بالوحدة والعزلــة عن الأصدقاء أو العائلة التي قــد تمد لهن يد العون. ولذلك، قررت آني اقتحام الميدان ومدّ تلك اليد؛ ففي مطلع عام 2005 اصطحبت مجموعة أمريكية زائرة إلى أحد مواخير الجنس. وفي حين ظل الرجال خارج المكان، أخذت آني عــددًا قليلا من النساء إلى الداخل. وتقول آني عن ذلك: جلسنا مع فتاة عمرها

22 عامًا فقط، وهي أم لطفلين. أخبرتنا كم تكره العمل في هذا المكان. وعندما سألتها أين تحب أن تكون بدلا من ذلك، قالت: في البيت بصحبة طفليّ. دفعت آني ورفيقاتها إلى صاحب الماخور 600 بات (نحو 15 دولارًا) لاستئجار المرأة لليلة واحدة، فهذا هو السعر المعتاد الذي يدفعه الزبائن لليلة ترفيه كاملة. وقد تحول هذا المبلغ إلى ثمن للتوبة؛ لأن تلك المرأة لم تعد إلى مكان عملها القديم.

قبل مدة قصيرة، تدربت آني على كيفية صنع المجوهرات، فعرضت على تلك المرأة أن تعمل معها في صنع المجوهرات لأغراض تجارية. قبلت المرأة العرض وكانت أول موظفة في مشروع « نايت لايت». لم يكن لدى آني ورشة، أو مكتب عمل في ذلك الوقت، فطلبت من موظفتها الجديدة مقابلتها في مطعم معروف في بانكوك. وبين رائحة الشواء التي تعبق بالمكان، أعطت آني تلك المرأة أول جلسة تدريب في صنع المجوهرات، ثم عادت المرأة إلى بيتها وهي تحمل حقيبة مليئة بالخرز والأحجار الكريمة.

سلاح العار

العار هراوة تهوي على رأس المرأة المُسْتَعْبدة عند كل منعطف طريق. وتبدأ الرحلة مع العار عندما يبدأ الآباء في العائلات الفقيرة بلوم البنات على فقرهم. ولذلك، فإن معاناة الوالدين تجعل البنت تشعر بالعار وتأنيب الضمير، وبأنها السبب في هذا العوز. وكما تقضي التقاليد الاجتماعية، فإن البنات الصالحات يتحملن مسؤولية صحة آبائهنّ وإعالتهم، وعليهن أن يكنّ أكثر استعدادا للتضحية، مهما كانت، لتغيير وضع آبائهن.

كما أن نظرية المجتمع إلى الطهارة الجنسية ذات أثر كبير في شعور الفتيات بالعار. فعندما تفقد الفتاة غير المتزوجة عذريتها، فإنها تعدّ منهوبة، ولا فرق إن كان أحد أفراد العائلة هو من اغتصبها جنسيًّا، أو أي شخص آخر. فالطهارة

كل لا يتجـزأ، فهي إما أن تكون عذراء أو لا تكون. وسوف تعاملها عائلتها كلطخة سوداء في شرف العائلة، إضافة إلى عزوف أيّ شخص يحترم نفسه من الاقتران بها. ولذلك، فقد تُباع هذه الفتاة في سوق البغاء بعد أن فقدت طهارتها؛ ومن هنا ترتدي رداء العار الذي سيلازمها ما دامت حية.

إنّ تجار الرّقيق وأصحـاب بيوت الدعارة يستخدمون هذه القيمة الثقافية في النظرة إلى العذرية لاستغلال الفتيات. فإذا ما قاومت الضحية الجديدة فكرة ممارسة الجنس مع زبون غني باحث عن المتعة، فإن الشخص الذي يستعبدها قد يغتصبها بنفسه، ثم يقول لها: لقد أصبحت الآن بضاعة مستعملة. وعندها، لن تجد هذه الفتاة التي تعرف القيمة الاجتماعية للعذرية أي حل سوى الاستسلام للأمر الواقع في بيت الدعارة. لقد فقدت كل شيء، وعائلتها سوف ترفضها، وجيرانها سوف يعاملونها كمنبوذة، ولن تكون أمامها أي فرصة للعيش في مجتمع محترم.

وعنـد استسـلام الضحية، سوف يستفيد منها أصحـاب مواخير الجنس، والباحثـون عن المتعـة، وقد يصل الأمر إلـى المسؤوليـن الحكوميين في بعض الأحيـان. وتشير منظمة العمـل الدولية إلى أن السياحـة الجنسية تساهم بنحو 15%من الدخل القومي لدول مثل: ماليزيا، وتايلاند، وإندونيسيا والفلبين[18].

آني ديزلبيرغ؛ الإعداد للمستقبل

إنّ البرامج التي تشجع الفتيات على الهروب من تجارة الجنس، ثم تتركهن فقيرات وعاطلات عن العمل، لا تؤدي إلى قصص نجاحات طويلة الأجل. وتظل مثل هؤلاء الفتيات عرضـة إلى الاختطاف من تجار الرّقيق مرة أخرى. ولذلك، أنشأت آني ديزلبيرغ مشروعها لإعداد الفتيات للحياة بعد تركهن تجارة الجنس.

ويمكننا النظر إلى مشروع «نايت لايت» من عدة زوايا. فبالنسبة إلى المبتدئات، يعد هذا المشروع عملا تجاريًّا لتدريب النساء على صنع المجوهرات التي أصبحت تعرض اليوم في تايلاند والولايات المتحدة. وعن هذه التجربة، تقول آني: كل واحد يجني أموالا من هؤلاء النسوة: تاجر الرّقيق، وصاحب الماخور وغيرهم. لكن هؤلاء النساء أنفسهن لا يفارقن مستنقع الفقر. والمفارقة هنا أن المجتمع لا يدفع راتبًا محترمًا لامرأة فقيرة، في حين يدفع الباحثون عن اللذة بسخاء لاستغلال جسدها لدقائق معدودة.

وبالرغم من محدودية الميزانية، إلا أن مشروع « نايت لايت» يدفع ضعف الحد الأدنى الذي ينصّ عليه القانون التايلاندي. وبالتأكيد أن هذا الراتب لا يجعل النساء العاملات غنيّات، ولكنه يساعدهن على الحياة النظيفة بدخل منتظم. وإذا أرادت الضحية الالتحاق بهذا المشروع، فعليها أن تعمل مدة 40 ساعة في الأسبوع، وترك تجارة الجنس تماما.

وتهدف سياسة المشروع من وراء دفع راتب منتظم بدلا من دفع ثمن لكل قطعة يجري إنتاجها، إلى تسهيل رسالة المشروع الأخرى؛ وهي إعداد النساء صحيًّا وتعليميًّا. فبالإضافة إلى العمل المطلوب في ساعات الدوام، يجب على النساء حضور ورشات عمل في العناية الصحية، والوقاية من الأمراض الجنسية، والإدارة المالية الشخصية، والإعداد الروحي، واللغة الإنجليزية.

لقد وظّف مشروع «نايت لايت» 80 امرأة، مع أنّ آني تقول بأن 130 امرأة تدربن في ورش المشروع منذ انطلاقته في عام 2005، وأن هناك لائحة انتظار طويلة بالنساء الراغبات في الانضمام إلى هذا المشروع. ولكن الضوابط وشحّ الموارد المالية عقبتان كبيرتان أمام توسّع المشروع. وفي الحقيقة أن آني لم تكن تنوي التوسع بالمشروع بهذه السرعة، إلّا أنّ التّوسّع هذا حدث تلقائيًّا بعد انتشار خبر المشروع في بيوت الدعارة، وتزايد عدد الهاربات منها. حينها، مضت

آنـي قُدُما نحو الأمام. وعـن ذلك تقول: لقد شعرت في المراحل الأولى أن علينا إيقـاف توسعنا. ولكني تلقيت مكالمة من فتـاة شابة كنت أدعو لها لست سنوات تسأل إن كنت أستطيع مساعدتها على ترك تجارة الجنس، فرأيت في ذلك إشارة من الله للاستمرار.

شون ليتون؛ اعتقال عصابة تجار البشر

تصور نفسك في غرفة مظلمة، تمد يدك لتمسك شيئًا تعتقد أنه أفعى، ثم تـدرك أنـك تمسك ذيل فيل. هكذا يصف شون ليتـون، نائب رئيس بعثة العدالة الدوليـة، الصدفة التي ينطوي عليها التحقيق في عمليات الاتّجار بالبشر، حيث قد تؤدي معلومة بسيطة إلى عملية اعتقال كبيرة.

تستخدم بعثة العدالة الدولية مجموعات خبيرة ومدربة في العدالة الشعبية؛ محقق جرائم، مدعين عامين، محللين سياسيين ودبلوماسيين – لمواجهة العبودية أينمـا وجـدت. وتجمع هذه الفـرق إثباتات تفصيلية عن الحجـز غير القانوني، وتشجع سلطـات الشرطة المحلية على تحرير العبيد. ثم تتعاون هذه الهيئة بعد ذلـك مـع المحامين المحليين لرفع قضايا أمام المحاكـم ضد المهربين أو من يحتجزون عبيدا.

ويشير ليتون إلى معلومة تلقاها من منظمة غير حكومية في تايلاند في أواخر عـام 2004، مفادهـا أن رجلا تايلانديًّا اتصل بها بعـد أن أُجبر على دفع 1500 دولار لشراء حرية ابنة أخيه من الأسر. وفي التفاصيل، أفاد الرجل أن ابنة أخيه سيـري هاتفته من ماليزيا طالبة النجدة. كانت مجموعة من الرجال المسلحين تحتجزها رهينة في أحد بيوت الدعارة، طالبة فدية لإطلاق سراحها. وفعلا، أطلق المسلحـون سـراح سيري بعد دفع الفدية، وهي الآن فـي بيتها سالمة. إلّا أن عم البنت يطالب بمحاكمة هؤلاء الأشخاص الذين أكرهوا البنت على ممارسة البغاء.

التزمت المنظمة غير الحكومية بمساعدة العائلة، ولكنها أدركت أن ليس بمقدورها التعامل مع المجموعات المسلحة في سوق الجنس القسري، ولذلك، طلبت مساعدة بعثة العدالة الدولية، والتي تعارض دفع أموال لتجار الرّقيق كفدية لإطلاق سراح العبيد.

حصلت البعثة من سيري على معلومات مالية وشخصية قليلة عن تجار الرّقيق الذين كانوا يحتجزونها، مما هيأ فرصة فتح تحقيق في القضية.

اجتمع أحد المحققين مع سيري لتسجيل كل شي تعرفه عن مختطفيها. أخبرته الفتاة أن زعيم العصابة التي اختطفتها يُدعى جوني. وقالت إنها كانت تعمل خياطة في مدينة ماي ساي التايلاندية براتب مقداره 75 دولارًا شهريًّا، وهو راتب محترم بالمقاييس المحلية، وبخاصة لفتاة في العشرينيات من عمرها. لكن امرأة تعمل لحساب جوني أقنعتها بتأمين وظيفة لها في أحد مطاعم ماليزيا براتب أوّلي قدره 250 دولارًا في الشهر. يومها، قالت لها تلك المرأة: أنت فتاة شابة، وعمرك 21 سنة. ومن المحتمل أن تقابلي هناك رجلا صينيًا ثريًّا يعشقك ومن ثمَّ يتزوجك.

عندما وافقت الفتاة على العرض، ساعدتها تلك المرأة على تقديم طلب للحصول على جواز سفر، وتولت أمر ترتيبات الانتقال من تايلاند إلى ماليزيا. في اليوم المحدد للسفر، وضعت المرأة الفتاة على متن حافلة صغيرة مع مجموعة من الفتيات المحظوظات اللواتي حصلن على وظيفة في مطعم، وحال عبورهن حدود تايلاند الجنوبية، ووصولهن إلى المدينة المقصودة، كان جوني في انتظارهن.

ولخيبة أملهن، أخبرهن جوني أن مصلحته في إحضارهن إلى هذه المدينة تقضي بربطهن بعقد لمدة ستة أشهر للعمل في مهنة الترفيه. وللتحكم بهن أكثر، طلب منهن تسليم جوازات سفرهن للمحافظة عليها.

وقد أعطت سيري محقق بعثة العدالة الدولية ما يكفي من المعلومات للتأكد من أن جوني لا يعمل بمفرده، بل هو جزء من عصابة جريمة منظمة. ففي أثناء الأسابيع القليلة التي قضتها في ماليزيا، أجبرت سيري على العمل في عدة بيوت للدعارة، تعمل في كل واحد منها مئتا امرأة أو أكثر. وقالت الفتاة إنها كانت تحت رقابة دائمة، وإن الحراس المسلحين لم يفارقوها إطلاقًا.

كان المجرمون يرفضون أن يبني العبيد أي علاقة وثيقة يمكن من خلالها تدبير عملية هروب، ولذلك كانوا ينقلون هؤلاء النساء باستمرار من بيت إلى بيت ومـن ماخور إلى آخر. وببساطة، عرفت سيري أن معظم الضحايا الأخريات قد جئن من دول مختلفة من جنوب شرق آسيا.

بعـد أن قضت سيري عـدة أسابيع رهينة، طلبت من جوني يوما أن يعيدها إلى تايلاند، فأخبرها بأنها تطلب المستحيل لأنها مدينة له بألف وخمسمئة دولار بدل النقل، وجواز السفر، والإيواء، والطعام وأجر المرأة الوسيطة. عندئذٍ، وعدته بإمكانية تدبير هذا المبلغ إذا سمح لها بمهاتفة عائلتها. وعندما وافق على طلبها، اتصلت بعمّها، الشخص الوحيد الذي كانت تأمل منه إخراجها من هذه المحنة.

ساعدت هذه المعلومات محقق بعثة العدالة الدولية على وضع خطة للوصول إلى هذه العصابة الإجرامية. عن ذلك يقول: إن هذه الحالة تمثل عناصر الاتّجار بالبشـر جميعها؛ النصـب، والاحتيال، وأشغـال السّخرة، والعبوديـة الجنسية، وانتهاك قانون الهجرة، والاختطاف؛ كلّ ذلك في شَرَك واحد.

ونظـرًا لمخاطـر مواجهة شبكة مافيـا معقدة إلى هذا الحـد، طلب ليتون مساعـدة من مكتب البعثة الرئيس في واشنطن، فأرسلت البعثة كبير محققيها، الذي يسميه ليتون «العبقري» حتى لا يكشف اسمه لحالات مستقبلية، إلى المدينة المقصودة عميلا سرِّيًّا.

obeikandl.com

بعدما قام محقق البعثة بجولات على بيوت الدعارة المعروفة في المدينة، تأكد بنفسه أن سيري لم تبالغ في وصف الحراسة المشددة المفروضة على هذه البيوت. كان الحراس المسلحون يستخدمون أجهزة اللاسلكي، ويقومون بجولات حول البنايات التي كانت تُغلق بأبواب حديدية، ويطل الحراس من كوّات صغيرة فيها لاستطلاع الزبائن المحتملين، ثم تفتيشهم قبل دخولهم.

استطاع العبقري أن يتجاوز الإجراءات الأمنية على الباب الأمامي للماخور، ثم أجلسه أحد سماسرة البغاء في شرفة يستطيع منها استعراض المومسات واختيار ما يحلو منهن.

لقد وصل المحقق الآن إلى نقطة حاسمة، ومن هنا اكتسب لقب العبقري. أخذ يقيّم على أرض الواقع المرشحات المحتملات اللواتي يمكن أن يتعاونّ معه في التحقيق. ونظرًا للتهديد الدائم باستخدام العنف، كانت بعض النساء مرعوبات لدرجة لا يمكنهن معها خيانة السّجانين. في حين كانت هناك بعض المومسات الراغبات في تقديم خدمة لسجّانها من خلال كشف هوية المحقق. لذا، كان على العبقري أن يتعامل مع النساء من خلال ملف صفات الشخصية الخاص به. أما كيف كان يفعل ذلك؟ إنّه لغز حتى بالنسبة إلى ليتون نفسه.

على مدى الأيام اللاحقة، استطاع العبقري إجراء مقابلات مع مجموعة من النساء اللواتي كن سعيدات بإطلاعه إلى حكاية اختطافهن وأسرهن، ثم سجّل هذه المقابلات، وطلب إليهن مواصلة عملهن كالمعتاد حتى لا يثرن شكوك أصحاب بيت الدعارة. وعلى الجانب الآخر، كان محامو بعثة العدالة الدولية يعملون على مدار الساعة لتحويل التسجيلات إلى تقرير قوي يمكن أن يدعم أي قضية مرفوعة أمام المحاكم ضد المجرمين.

obeikandl.com

كشف التحقيق تفاصيل كثيرة عن عصابة تهريب النساء اللواتي اختطفن رغمًا عنهن من جميع دول جنوب شرق آسيا، وبخاصة: كمبوديا، وفيتنام، وبورما، ولاوس، وتايلاند، وجنوب الصين. كانت أصغر هؤلاء المختطفات فتاة عمرها 14 عامًا، في حين تراوحت أعمار معظم الأخريات بين 16 — 25 سنة. كان على كل مومس أن تخدم ما بين سبعة إلى ثمانية زبائن في الليلة الواحدة مقابل 40 دولارًا لكل معاشرة جنسية. وفي حال لم يكن هناك ما يكفي من العمل للبغايا كلهن، كانت العصابة توزعهن على بيوت مختلفة في أنحاء المدينة على شكل مجموعات من عشرين امرأة، مما يجعل من الصعب على الشرطة القبض عليهن. بعد ذلك، تبين أن عصابة مافيا آسيوية هي التي تدير هذه العصابة، وخلايا أخرى في جميع دول جنوب شرق آسيا. أما زبائن بيوت الدعارة هذه، فهم رجال أعمال آسيويون أثرياء غالبًا.

وعندما تأكد فريق بعثة العدالة الدولية أنه جمع أدلة كافية، تولى مهمة تنسيق التعاون بين مختلف أجهزة الشرطة في تايلاند والدول الأخرى المعنية. ولم تكن هذه الأجهزة قد تعاونت قبل هذا التاريخ في قضايا الاتّجار بالبشر. والأهم من كل هذا، هو أن البعثة قدمت تقريرًا بتحقيقاتها إلى السلطات العليا المشرفة على تطبيق القانون في ماليزيا. وبعد دراستهم لهذا التقرير، أظهر كبار ضباط الشرطة حماسًا كبيرًا للقضاء على هذه العصابة. ونظرًا لوجود ثغرات في القانون المحلي، توصلت البعثة إلى اتفاق ينص على التزام الشرطة ببندين رئيسين:

(1) معاملة المومسات على أنهن ضحايا لا مجرمات. (2) محاكمة المجرمين، لا مجرد اعتقالهم فقط.

في مطلع إبريل 2005، هاجمت قوات كبيرة من الشرطة عددًا من بيوت الدعارة الكبيرة العاملة في المدينة المُستهدفة. ولسوء الحظ، تسربّ خبر الغارة،

ولـم يُعتقل حينئذ سوى فرد واحد من أفراد العصابة. وبالرغم من هذا الفشل، إلا أن الشرطة استطاعت إنقاذ 95 امرأة.

لقـد كانت هذه الحالة نقطة بداية بالنسبة إلى البعثة التي ركزت جهودها حتى الآن على كشف عمليات الاتّجار بالبشر داخل تايلاند وكمبوديا. وبعد كشف الصورة العامة للاتجار بالبشر، قيّمت البعثة عملياتها لتتناسب مع حجم الشبكات المعقدة الآخذة في الانتشار في عموم جنوب شرق آسيا.

وفـي مرحلـة لاحقـة، تمكنت الشرطـة المحلية، فـي أعقاب عمـل البعثة والشرطة، من اعتقال أحد العملاء الرئيسين لعصابة التهريب هذه، وسبعة من المتعاونيـن معه، مـن بينهم المرأة التـي احتالت على سيري. وقـد رفع محامو البعثـة قضية ضد هؤلاء، وأثبتوا أن المتاجرين بالبشر يمكن أن يلاقوا جزاءهم إذا ما طبّق القانون.

آني ديزلبيرغ؛ الشرطة على الحياد

عادة ما يتساءل أصدقاء آني في الولايات المتحدة ببراءة: لماذا لا تذهبين، ببساطة، إلى الشرطة والتبليغ عن إكراه النساء على ممارسة البغاء؟ عندما يُطرح عليهـا هذا السؤال، سرعان مـا كانت تعود إليها صور تجـارب لا تزال ماثلة في ذاكرتها. في عصر أحد الأيام، كانت آني تعبر أحد الشوارع الكبيرة في بانكوك، عندمـا سمعـت صراخ امرأة كانـت تتعرض إلى اعتداء علـى الجانب الآخر من الشارع. كانت المـرأة تحاول الهرب من رجل يزيد حجمه على حجمها بمرتين، لكنه لم يلبث أن أمسك بها، ثم وضع شيئًا حادًا ولامعًا بيده اليمنى على رقبتها، في حين استخدم يده الأخرى لجرّها إلى سيارة واقفة على الرصيف، وبابها مفتوح.

شعرت آني بانفعال كبير وهي تشاهد مأساة تلك المرأة، وأخذت تنظر من حولها محاولة فعل شيء لمساعدة تلك المرأة. وفجأة، أحست بارتياح عندما رأت رجل شرطة تايلانديًّا يقف خلفها بلباسه الرسمي الكامل. كان الشرطي يراقب المشهد الدائر على الجانب الآخر من الشارع، ولكنه لم يفعل شيئًا يشير إلى أنه سوف يتدخل.

أحست آني بالغضب لأنها لا تطيق رؤية الظلم. ذهبت إلى الشرطي، وطلبت إليه بأدب اجتياز الشارع وإنقاذ المرأة. هزّ الشرطي كتفيه بلا مبالاة، وقال: إنها فتاته، وسوف يحلّان مشكلتهما لوحدهما. في تلك اللحظة، كان الرجل يدفع بالمرأة إلى الكرسي الخلفي من السيارة. ظلت المرأة تصرخ طالبة النجدة دون جدوى، أمّا الرجل فقفز إلى مقعد السائق، واندفع بسيارته محدثًا بعجلاتها صريرًا يصمّ الآذان. نظرت آني في وجه الشرطي وقالت له: لِمَ ترتدي هذا الزّيّ؟

الرجال الذين يرفعون الطلب على النساء

تمتلئ شوارع بانكوك كل ليلة برجال في منتصف العمر، وهم يسيرون متشابكي الأيدي مع فتيات مراهقات. وفي الحقيقة أن سياح الجنس هؤلاء يأتون إلى هذه المدينة من أنحاء العالم بأسره لممارسة نزواتهم الشخصية. يدفع بعض هؤلاء الرجال ثمن متعة سريعة، في حين يفضل كثيرون شراء صديقة لليلة كاملة أو لعدة أيام. يتصرف هؤلاء الرجال كما لو أنّهم مراهقون صغار، ويسيئون معاملة من يواعدونهن أمام الآخرين دون حياء.

وتروج وكالات سياحة متخصصة حول العالم مغامرات جنسية مثيرة مع مومسات آسيويات، خبيرات في إسعاد الرجال. وعندما ينجح سياح الجنس في التجربة الأولى، ويعرفون بأنفسهم سهولة شراء الفتيات الصغيرات، فغالبًا ما يكررون هذه الزيارات الماجنة.

على المستوى العالمي، صُنِّفت تايلاند بأنها دنيا المغامرات الجنسية. وقد تتبعت مجموعة تعنى بحقوق الطفل في بانكوك ازدهار سياحة الجنس على مدى عقدين من الزمن. وتظهر دراسات المجموعة أن مليوني سائح أجنبي زاروا تايلاند في عام 1984، مقابل أربعة ملايين زاروها في عام 1988، أما في عام 2003 فقد وفد إليها أكثر من 11 مليونًا [19]. ومن بين المجموع الكلي للزوار الأجانب، كان ثلثاهم من الرجال المنفردين، أي أن 7.3 مليون رجل منفرد زاروا تايلاند في عام 2003. وبالتأكيد أن كل هؤلاء السياح لم يأتوا للسياحة الجنسية، ولكن يمكن التقدير بأن عددًا كبيرًا منهم جاء لهذه الغاية. وفي الحقيقة، وبناء على مسح لوكلاء السياحة أجرته وكالة المساعدة العالمية «آيد فيجن» فإن 65% من السياح القادمين إلى كمبوديا كانوا رجالا؛ خُمسهم جاءوا لممارسة الجنس[20].

إنّ الرجال الباحثين عن الجنس، القادمين من اليابان والصين وكوريا وتايوان يرفعون الطلب على الفتيات الصغيرات العذراوات. وهناك اعتقاد في هذه الثقافات الآسيوية، بأن ممارسة الجنس مع عذراء يجلب الحظ للمشاريع التجارية الجديدة. كما أن الفتيات العذارى أقل خطرًا في نقل الأمراض الجنسية. وجاء في تقرير أعده نيكولاس كريستوف، الحائز على جائزة بولتزر، في صحيفة نيويورك تايمز في عام 2009، أنه يُجرى إعادة ترقيع غشاء بكارة الفتيات لإعادة بيعهن كما لو أنهن أبكار. وقال إن إحداهن بيعت أربع مرات بهذه الطريقة[21].

وقد أدى الطلب المتزايد على العذراوات إلى نشوء سوق فرعية خارج مسارب الجنس التجاري المعتادة – الحانات، أندية الغناء، وبيوت الدعارة. في هذه السوق، يقوم الآباء بتسويق عذرية بناتهم، كما لو أنهم وكلاء مستقلين. وقد يبيعون بناتهم من عمر 12 أو 13 سنة لمن يدفع أعلى سعر. ومع أن هذا الأسلوب غير شائع، إلا أن من المعروف بأن الرجال اليابانيين والصينيين كانوا يدفعون للآباء مقدمًا لسنوات من أجل رعاية بناتهم الصغيرات. وبناء على هذا التقليد، تتلقى العائلات

دفعات منتظمــة لتربية بنات صحيحات الأجساد. وعندما يكون الراعي جاهزًا، فإنه سوف يأتي لممارسة الرذيلة مع هذه الفتاة أو تلك.

ومن ناحية أخرى، يميل سياح الجنس الغربيين إلى ارتياد الحانات وبيوت الدعارة في المدن الكبرى، مثل بانكوك. ومع أن بعضهم قد يطلب ممارسة الجنس مع الأطفال، إلا أن معظمهم يتصرفون بطريقة انتهازية، بمعنى أنهم يتصرفون بتلقائيــة تجــاه ما يحدث عندمــا يصلون إلى حانة جنس أو نــادي غناء. وهناك بعضــ الرجال الذين ربما لــم يكونوا قد خططوا مسبقًا للدخول في لعبة الجنس التجاري في رحلاتهم إلى جنوب شرق آسيا، ولكنهم يجدون الأمر سهلا عندما يصلون إلى هناك.

ومن الواضح أن السياحة الجنسية تزيد الطلب على العبودية الجنسية، إلا أن مساهمتها في تجارة الجنس في جنوب شرق آسيا مبالغ فيها كثيرًا في وسائل الإعلام العالمية. وفي الحقيقة أن العدد الأكبر من طالبي المتعة الجنسية مدفوعة الأجــر هم من سكان البــلاد الأصليين، وفق ما ذكرته الوزيــرة السابقة لشؤون المرأة في كمبوديا مو سوشوا، التي قالت: الأجانب ليسوا الوحيدين الذين يبتزون أطفالنا، بل إن المرض الحقيقي ينبع من داخلنا[22]. وقد أكد هذه الحقيقة تقرير لصحيفــة الأوكونومست البريطانية في عــام 2008، جاء فيه: ما زالت حكومات جنــوب شرق آسيا تتحدث أحيانًــا كما لو أنه لا يوجد شاذّون محليون يميلون إلى ممارسة الجنس مع الأطفال. ومثلما كان عليه حال الغرب في الماضي، غالبًا ما يكون الأغنياء فوق القانون[23].

وقد جرت العــادة أن الرجال في كمبوديا وتايلاند، بشكل خاص، يرتادون بيــوت الدعارة كجزء من التسلية الليلية. ويشير عدد من الدراسات التي أجريت في كل من كمبوديا وتايلاند إلى أن نحو 40% — 50% من الرجال يمارسون الزنا مقابــل المال سنويًّا[24]. وتتقبل النســاء المتزوجات بصمت حقيقة أن أزواجهن

سوف يدفعون نقودًا لممارسة الجنس مع الأولاد، وتبرر النساء ذلك بأن للرجال احتياجات جنسية، وأنهم على الأقل لا يسعون وراء النساء العازبات اللواتي يمكن أن يأخذن مكانهن.

وهكـذا، فقد أصبح الزنا جزءا من كثير من الطقوس الاجتماعية. فرجال الأعمال يستخدمون الجنس مدفوع الأجر على أنه تقليد من تقاليد إتمام الصفقات التجاريـة؛ فالشركة التي لا تقدم لزبائنها الجنس قد تخسر أمام شركة منافسة تقـدم هذه الخدمة. أما رجال الطبقـة العاملة فيقدمون الجنس لأصدقائهم في أعيـاد ميلادهم أو في المناسبـات الخاصة. كما أن الآبـاء الشغوفين بأبنائهم يدفعونهم ليمروا بتجربتهم الجنسية الأولى في بيت دعارة.

آني ديزلبيرغ؛ فك السحر

تزور آني وفريقها حانات الجنس في بانكوك مرتين في الأسبوع ليتمكنوا من تمتين العلاقات مع النساء اللواتي يعملن فيها. وطالما ظلوا يطلبون المشروبات بمعدل معقول، فإن صاحب الحانة لا يمنعهم من الدخول. أما بعد أن ذاع صيت مشروع « نايت لايت» بديلا لنوادي الجنس، فقد أصبح أصحاب البارات يحذّرون النساء العاملات من التحدث إلى آني وفريقها.

ما يزعج آني هو أن كثيرًا من النساء قد استسلمن لمصيرهن، ولا يحاولن البحـث عن طريـق للخلاص. وسبب هـذا الاستسلام هـو أن أصحاب الحانات جعلوهـن يعشن في رعب دائم مـن خلال تعريضهن للعنـف وتهديد عائلاتهن. ويأخذ العنف هناك أشكالا متعددة، فبالإضافة إلى الضرب، يلجأ أصحاب تلك الحانات إلى السيطرة على أولئك النساء البائسات عاطفيًّا وروحيًّا.

ويلجـأ بعض أصحاب الحانات إلى إجـراء طقوس روحية داخل الحانة في المساء قبل خروج الفتيات إلى مواعيدهن. وقد حضرت آني بعض هذه الطقوس، ووصفت المشاهد الغريبة التي رأتها. ومن هذه الطقوس، أن صاحب الحانة يرتب النســاء في حلقة، ثم يأتي بطوطـم (عمود خشبي منحوت ومزين بنقوش ورموز بوذيـة) على صـورة العضو الذكري. بعد ذلك، يرشـ الرجل ماء على الطوطم، ثـم يمرره علـى النساء ليتحسسنه. بعـد أن يمرّ الطوطم علـى النساء جميعهن فـي الحلقة، يحمله الرجل ويدور به في أرجـاء الحانة، ويلمس به الطاولات التي سيجلس عليها الزبون في تلك الليلة. وأخيرًا، ينتقي الرجل فتاتين لإنهاء الطقوس الاحتفالية. تخرج الفتاتان إلى باب الحانة الأمامي، وتضعان الطوطم بين أرجلهما، ثم يرشان الماء بأرجلهما صوب الشارع.

إنّ هذه الطقوس الدينية ذات أثر كبير في نفوس النساء، وبخاصة النساء القرويـات اللواتي نشـأن في مناطق ريفيـة نائية، حيث يعتقـد الناس هناك أن الأرواح إذا مـا دخلت إنسانًا مـا فإنها تتلبسه بالكامل. وكثيـرًا ما كانت النساء اللواتـي يكرهن تجارة الجنس يسألن آني كيفيـة التخلص من الأرواح الشريرة. وحتى لو أن هؤلاء النسوة هربن من قبضة صاحب الحانة، فلن يتخلصن أبدا من اعتقادهن بمسّ الجن لهن.

وتوضح آنـي أن مقاومة شبكات الإجرام التـي تسيطر على تجارة الجنس يجـب أن لا تقتصر فقط على مجرد الجهـود المتواضعة لمكافحة الرق، بل على الأديـان القيـام بدورها أيضـا. وعن ذلك تقول: لقد قضيـت معظم طفولتي في زائيـر (الكونغـو) وفي تايلاند، وقد شاهدت ما يكفي مـن الظلم. ولكني عندما أرى الظلمـة التي تغطي حيـاة النساء والأطفال الصغار في تجارة الجنس، فإني أشعر أني أواجه شياطين مَرَدَة.

ولهـذا السبب، فإنها تحث المنظمات الدينية علـى المساهمة في الجهود الدوليـة الراميـة إلى مكافحة تجـارة الجنس؛ فالعالم بحاجـة ماسة إلى الحب والتماسـك العائلي. وعلـى الذين يقولون إن الدين يدعو لهـذا، أن يقرنوا القول بالعمل، وأن يخرجوا إلى الشارع ويعيشوا الواقع كما هو.

كرو نام؛ أم لأكثر من مئة طفل

كانت كرو نام كثيرًا ما تسأل تشان إن كان يرغب في العودة إلى بيته ليعرف مـا إذا أُطلق سـراح أخته وأنها عادت إلى البيت. وفي كل مـرة تسأله فيها، كان تشـان يهز رأسه بالنفي. وفي آخر مرة سألته هـذا السؤال، كشف لها شيئًا كان يخفيـه عنها. قال لها بأنه تسلل إلـى كمبوديا قبل عام مضى، واستطاع حتى في جنح الظلام معرفة أن أمه لم تعد موجودة في المنزل، وأن عائلة أخرى سكنته. ولـو أنـه قدّر لتشان أن يهتـدي إلى المصنع مرة أخرى، فربمـا وجد أن صاحب المصنع قد تغيّر أيضًا لأن المشاريع التجارية في مدينة ماي ساي عادة ما تكون مؤقتة؛ فتجار الرّقيق لا يستقرون في مكان واحد مدة طويلة.

مرت ثمانـي سنوات على بيع تشان وشقيقته إلـى تاجر الرّقيق، ولا يعرف تشـان إن كانت شقيقته أو أمه على قيـد الحياة أم لا. وبالرغم من هذه المعاناة كلهـا، إلا أن تشان سعيد بحريته، وهو مـع 120 طفلاً آخرين يشعرون بالامتنان لانعتاقهـم من العبودية، بفضل فنانة تشكيلية آمنت بأن موهبتها العظيمة تكمن في إنقاذ الأطفال، لا في رسم اللوحات الفنية.

obeikandl.com

الحملة الكبرى؛ مساعدة كرو نام وآني ديزلبيرغ

كما جاء بالتفصيل في نهاية هذا الكتاب، فقد كانت شجاعة كرو نام النادرة في إنقاذ الأطفال هي ما حفزني إلى التحول من مؤلف إلى ناشط في الحركة المناهضة للرق في العالم.

وهذا ما يبرر تركيز جهود حملة « ليس للبيع» العالمية على ما يجري في تايلاند.

وفي الوقت الذي كان فيه هذا الكتاب على وشك الطباعة. كانت كرو نام قد أنقذت أكثر من 60 طفلا ، وحصلت على قطعة أرض في منطقة المثلث الذهبي عند التقاء حدود لاوس وبورما وتايلاند، ولكنها ظلت تعيش مع الأطفال في خيام وملاجئ مؤقتة. وقد وعدتها ببناء مساكن دائمة لها، ونجحنا في جمع الأموال اللازمة في عام 2007. ومنذ ذلك الحين، ونحن نمد لها يد المساعدة على توسيع قرية الأطفال تلك، وإضافة دور جديدة. وفي نهاية عام 2009، استطعنا بناء مستشفى بما يلزمه من معدات ومستلزمات طبية بقيمة مليوني دولار. كان هذا المستشفى يقدم الخدمة لسكان المنطقة المجاورة، وليس للأطفال المحررين فقط.

كما افتتحت الحملة في عام 2007 متجر الحرية التجاري الذي يُسوّق مجوهرات مشروع « نايت لايت» الذي أطلقته آني ديزلبيرغ. ويذهب ريع كلّ عقد، أو سوار، أو حلق أذن، يباع في المتجر أو عبر موقعه على الإنترنت، أو في حفلات دعم الحرية، إلى فريق آني ديزلبيرغ.

هاتان المبادرتان في تايلاند وجهان لعملة واحدة؛ فكرو نام تنقذ الأطفال، في حين تنقذ آني ديزلبيرغ النساء. وفي الوقت الذي تقدم فيه كرو نام التعليم

والعـلاج للأطفـال للعنايـة بصحتهم وتطورهم علـى المدى البعيـد، تقدم آني ديزلبيـرغ الدعم العاطفي والاقتصادي المستدام للنساء اللواتي لم يحظين في حياتهن بفرصة إعالة أنفسهن وعائلاتهن من خلال دخلهن في المشروع. وعندما تصلح كرونام الجيل التالي من التايلانديين، تعمل آني ديزلبيرغ على إنقاذ الجيل الحالي. وتلتزم حملة « ليس للبيع» بأن تظل شريكًا فاعلا مع هاتين المناضلتين الشجاعتين اللتين تظهران للعالم أهمية تكاثـف جهود المناهضين للعبودية في العالـم من المذاهـب والأطياف كافة، مثلما تتكاثف أشعـة الضوء لطرد جيوش الظلام.

obeikandl.com